الديمقراطية.. احتلال الآخر بالقانون
الكلام عن الديمقراطية مرتبط دائماً بتواريخ الحروب
العلاقا ت الإنسان ية قديمة

* الكتاب: La Democratie
* المؤلف: Charles Roman
* الناشر: BUCHET CHASTEL
France 2003
* عرض: ياسمينة صالح

الكاتب في سطور
شارل رومان :
كاتب سياسي فرنسي من مواليد الجزائر عام 1942. حاصل على شهادة الدكتوراه في الإعلام . عمل مراسلا صحفيا في كل من لبنان وفلسطين والجزائر قبل أن يصبح مديرا لجريدة دو مارسيل الصادرة في الجنوب الفرنسي. له العديدمن الإصدارات السياسية أهمها كتاب : «من قتل الخير؟» و«الشرق الأوسط: صراع بلون الدم» و«أيديولوجية الشر الغربي»، «الأمريكيون يحاربون أنفسهم».
حاز مؤخرا على جائزة القلم الذهبي التي تمنحها سنويا الجمعية الفرنسية للإعلام الحر.

لعبة الديمقراطية.. كما يطلق عليها أكثر من محلل سياسي، هي التي انفتحت عليها عين العالم، ليس كنتاج للتغيير نحو الأفضل، بل كوسيلة من وسائل الحرب، التي بدورها صارت اللعبة السياسية الخطيرة التي تتحدد على أساسها فقط مصائر الناس في العالم ككل.. الديمقراطية بالمعنى الأكثر راديكالية هي التي يصفها «جورج دابليو بوش» بالوسيلة المطلوبة لتصحيح أوضاع ولهيكلة أوضاع أخرى. ولكن الأوضاع التي لم يتكلم عنها أحد هي تلك التي صنعها الغرب نفسه. منذ أراد أن يتحكم في مصير أمم كثيرة ذنبها الوحيد أنها قالت وتقول لا. لديمقراطية الصواريخ والبنادق. والمصالح...

ما معنى الديمقراطية؟ وكيف يمكننا تصنيفها دوليا. وعلى أي أساس؟ لا أحد باستطاعته أن يعرف الديمقراطية بالشكل الذي يقدر على أساسه تقبل الفكرة من دون جدال. ليس لأن الديمقراطية غير قابلة للتعريف كما يدعي التجديديون الفاشلون.بل لأنها أصلا لا يمكن تعريفها حقا. لأنها مجموعة من الأيديولوجيات المتشابكة التي استغلها البعض لخدمة مصالحهم واستغلها البعض الآخر لمحاربة مصالح الآخرين..من هذا المنطلق لا نجد تعريفا واقعيا للديمقراطية بأكثر من أنها أرجوحة يتدحرج عليها كل من يريد احتلال الآخر بالقانون!.

لعل أبسط تعريف للديمقراطية الراهنة هو هذا الذي جاء في افتتاحية كتاب «الديمقراطية» الصادر عن منشورات «بوشيه شاستيل الفرنسية» والذي يعد من أقوى الكتب الرافضة لإيديولوجية الغرب في تسيير شؤون العالم.. ربما ظل الكلام عن الديمقراطية مرتبطا دائما بكل التواريخ المهمة التي انفجرت فيها الحروب هنا وهناك. حتى في فترات كان فيها الاعتقاد السائد هو إصلاح من مستوى الفرد شعارا براغماتيا إلى حد ما. ظلت اللعبة السياسية تتحرك نحو الانفلات الأمني. بمعنى «إثارة الفتن» لأجل وعود لم يكن ليحققها أو ليصدقها أحد على أرض الواقع.. ديمقراطية المصالح تعني اليوم العلاقة المبنية على الكارزماتية الآنية والضيقة. التي تعني ببساطة «أعطيك وهما تعطيني مكانا» وهي الفكرة القديمة لكل الإيديولوجيات المبهرة التي كانت تسير العلاقات بين الأفراد ومن ثم بين الدول.. ما بين الديمقراطية والمصلحة الشخصية تتلخص في النهاية كل تلك الخيوط داخل مشهدية الموت والخراب اليومي والدمار الذي عرفه العالم في العشريتين الماضيتين. منذ انتهت «ظاهريا» الحرب الباردة لتبدأ الحروب الاستراتيجية الأخطر والأعنف من نوعها. والقائمة على ثنائية العنف والعنف المضاد..!

قبل عشرين سنة. كانت عبارة «ديمقراطي» تعني ظاهريا: الرجل الحر. وتعني سياسيا «الديموكتاتورية» الرجعية.. خليط من البهرجة المدنية والعنف الفطري والتناقض الاجتماعي كلها عوالم صنعت الخليط لحلم لم يكن في الحقيقة أكثرمن سراب.

كانت عبارة أنا ديمقراطي تعني حالة من المعارضة لأشياء عاشها الغرب بكل تفاصيلها المقيتة. لهذا لم تكن تلك العبارة بديلا كافيا أمام تراكمات صنعها القهر والاحتلال والخصام الدفين. بحيث أن الرؤية السياسية في العبارة نفسها كانت تصنع من الكلمة شيئا مبهرا مثيرا للحلم. بالخصوص في دول شرق أوروباالتي عاشت انغلاقا كبيرا أدى إلى حالة من العزلة بين الشرق والغرب.. كانت ثمة صراعات دفينة لم تكن لتظهر من دون الضغط عليها. ربما كانت الحرية بمثابة القنبلة المؤجلة. بالأخص قبالة التناقضات الفكرية وحتى الاجتماعية بين دولة وأخرى..

في فرنسا. حين تدخل مطار «أورلي» الدولي مثلا تستقبلك عبارة «مرحبا بك في بلد الحريات والعلاقات الإنسانية الحضارية» لتكتشف بعد يوم واحد فيها أنك مصدوم أمام تلك الكذبة المبهرة والمغرية. يمكنك أن تشعر بالخيبة أمام أول شرطي يطالبك بأوراق ثبوتية تبرر وجودك هنا. وعندما يعيد إليك تلك الأوراق يقول مزمجرا: لا أعرف إن كانت أوراقك سليمة.. ولكن أنا لا أرتاح لك؟أزمة الأشكال أو أزمة العناصر والتداخلات كانت دوما أزمة الغرب مع ثقافة الآخر. ومع وجود الآخر. ولعل المثال الفرنسي لا يختلف عن المثال البريطاني وبالتالي عن المثال الأمريكي نفسه. الكل يكلمك عن الحرية وعن الإنسانية كي يسرق فرحتك بهما. وكي يصلبك قبالة الجدار باسم: القانون الدولي المزمجر.. يقول الكتاب.

الحروب غير الباردة

الديمقراطية.. التي تعني وضوح المجتمع تعني أيضا التعايش مع العالم.ربما بغير التفاصيل المتعارف عليها. أو كتلك التي عرفها العالم في العشرية الأخيرة.. قبل تاريخ كامل من الإسقاطات والانكفاءات على الذات. قال أرسطو:كمن يبحث عن شيء صغير ومضمحل يمكن للمرء أن يبحث عن وجوده في هذا الكون الكبير... ولعل عبارة وجوده هي التي حددت في الكثير من التواريخ ومن المراحل تغييرات في غاية الأهمية. فقيام الثورات والمقاومات النضالية في أكثر من قارة إبان الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات لم يكن نتيجة بحث صغير أو آني أو عقيم عن تلك الذات الإنسانية. بل كان طموحا واسعا وشرعية انتفضت على أساسها الكثير من الشعوب لتعيد إلى نفسها كرامة سرقها الغرب منها..لأن الاحتلال لم يكن من صنع الفقراء ولا الضعفاء. بل من صنع أولئك الذين يتكلمون اليوم عن الحرية وعن الديمقراطية وهم أنفسهم الذين يعاقبون الدول التي يرونها أكثر انغلاقا عن غيرها. وهي سخرية الأشياء.

تاريخ مرحلة الحرب الباردة كان مرتبطا بالحروب غير الباردة أيضا بموجب الكثير من النزاعات التي انفجرت في أوروبا الشرقية في الثمانينات وأخرى انفجرت في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.. ربما يتذكر العالم جيدا أحداث دي تروا الأمريكية التي وقعت في أبريل من عام 1984.. كان فيها الصراع الأخطر قائما على التمييز العنصري. وبالتالي على الرفعة السامية المتفق على تسميتها مرحلة السامية.. أزمة السود انفجرت في دي تروا لتخلف العشرات من القتلى. ولتمتد إلى مدن أخرى.. عبارة الزنوج كانت تناقض كل الشعارات الإنسانية التي قامت عليها الولايات الأمريكية منذ عبارة أبراهام لنكولن: هذه أمريكا تتسع لنا جميعا!.
قبل تلك السنة. وبالضبط إبان الستينيات. اكتشف الضعفاء الوجه الحقيقي لحرية الحرب. من دي تروا نفسها التي شهدت أيضا عام 1966 أعنف نزاع قام على نفس التمييز العنصري.. لكن بحنق أكثر.. كانت عبارة التعايش مع الآخر التي أطلقها المفكر الألماني تونيتشه بمثابة اللاحقيقة. التي وضعت أمام العالم واقعا جديدا وملموسا يتمثل ببساطة في سلطة القمع والقتل. بيد أن البحث عن البدائل البراغماتية كان أشبه بالركض نحو التيار. لهذا لم تتحقق الفكرة الإيديولوجية الجديدة إلا حين تراءت المصالح خارج البلاد. خارج الولايات الأمريكية نفسها. وحين كانت فيها التعويضات تعني الهيمنة على العالم بموجب الصراعات التي كان يعيشها العالم في الشرق والغرب.. يقول الكتاب.
كيف نفهم معنى ديمقراطية؟
لم يتحدد حتى الآن مفهوم واضح ومتفق عليه فيما يخص الديمقراطية. فبين أن تكون حكم الشعب أو حرية الشعب أو حق الشعب في الحكم. كلها مفاهيم غامضة. لأن الفكرة السياسية القائمة على التشريع القانوني والإنساني والبشري هو الذي انطلق من المعنى الواضح لعبارة الحياة بالمعنى الذي حددته كل الكتب السماوية المتفقة على أن الديمومة الكونية ليست قائمة على عبثية مطلقة. بل على قانون وعلى تشريع صنع هذه العلاقات بين شخص وآخر ملغيا كل الاختلافات في اللون وفي العرق.. هذا هو التشريع الذي تتفق عليه كل الديانات. بحيث أن تمرير رسالة الديمقراطية كان جد متأخرا عنها. باعتبار أن فكرة الديمقراطية ظهرت بإلحاح واقعي ملموس في بداية الستينات. وبالتالي في منتصف السبعينيات كانت الفكرة قد صارت موضةتتناقلها السياسات من جهة إلى أخرى. بينما العلاقات الإنسانية قديمة قدم الإنسان نفسه. وليس للديمقراطية فضل عليها.
لا شك أنه لم يكن ثمة شيء مقنع وثابت اسمه ديمقراطية الشعوب حتى في أحلك الظروف السياسية أو الاجتماعية. فمن منطلق واقعي وتاريخي فقد ارتبطت الديمقراطية بظاهرتين أساسيتين أولهما الزمان وثانيهما المكان.. وبين المعنيين كانت الرهانات تتأسس على عنصر مهم هو المصلحة داخل الزمان والمكان معا. بمعنى اختيار التوقيت الأنسب لتفجير القنبلة وإعلانها والتبشير بها. كأي مذهب قائم على المصلحة والمصلحة فقط !.
انهيار الكتلة الشيوعية أدى إلى حالة لم يشهدها العالم من قبل. ربما لأنها المرة الأولى التي تتجرأ فيها الشعوب. والشعوب الغربية بالخصوص على المطالبة برد الاعتبار إليها وإلى تصفية حساباتها القديمة مع أنظمتها الشمولية المنهارة أو الآيلة إلى الانهيار.. طبعا لم يعد ثمة سوى قطب واحد ليحكم العالم على كل المستويات والأصعدة. لأول مرة تعطي دولة لنفسها حق إدارة العالم وتسيير شؤون شعوبه ليس وفق ما تتطلبه تلك الشعوب. بل وفق ما تريده تلك الدولة التي دخلت مع نهاية القرن العشرين في حرب اعتبرتها خاصة بها ضد أولئك الذين تتهمهم بالانسداد. أو بالانغلاق..
أمركة العالم
كان العالم يعاني من عقدة النقص داخل الرؤية الأمريكية. لهذا لم يكن هنالك مجال للتفاهم على ماهية الأشياء من دون التصادم مع تلك الأشياء نفسها. وكانت الديمقراطية ضمن تلك الأشياء التي ظلت مرتبطة بخيوط اللعبة السياسية الجديدة.. لا شك أن حرب الخليج الثانية مثلا. هي التي فتحت المجال واسعا للولايات المتحدة الأمريكية للتدخل وأكثر من ذلك لتحديد ما أسمته قانونا دوليا جديدا على مقاسها الخاص..
فالتغيير بالقوة عبر فرض جملة من الأوامر ساعدا الغرب على غض النظر أمام الكثير من النزاعات التي لعبت الدور الأكبر في خلخلة الموازين الراهنة. وأهم تلك النزاعات. أزمة الشرق الأوسط.
منطقة التحكم
بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. عندما خسرت فرنسا مواقعها في سوريا ولبنان. وحين وجدت بريطانيا نفسها متورطة في فلسطين. استطاعت الولايات المتحدة أن تعود إلى الضوء. عبر محاولة سد الفراغات في المنطقة والتي كانت تعني بالنسبة إليها متنفسا دوليا تصنع بموجبه طموحها الأكبر في منطقة غنية بالثروات والموارد الطبيعية والبشرية.. أثناء كل مراحل الحرب الباردة. تحول الشرق الأوسط في عيون الأمريكيين إلى رهان في غاية الخطورة والأهمية الاستراتيجية في آن واحد. لأنه

رهان متواجدعلى مفترق ثلاث قارات. الآسيوية والأوروبية والإفريقية. فالمنطقة التي ظلت منذ 1947 تحت المنظار الدقيق للاتحاد السوفييتي لعدة اعتبارات كان فيها الاتحاد السوفييتي نفسه يراها مهمة لقطع الطريق أمام ما كان يطلق عليه في الكرملين مصطلح الإمبريالية الأخطبوطية..
بالنسبة للأمريكيين كان الأمر يتعلق بنظرية شبه واضحة وسهلة وهي وضع اليدعلى المنطقة. واستغلالها لمحاربة الشيوعية من جهة ومن جهة أخرى لمحاربة الدول التي كانت تتأسس على قوميات نضالية تحريرية.. ليس هذا فقط. بل أن الولايات الأمريكية كانت تتسلى بصناعة الغيلان الذين يحصلون على الدعم والمساندة المطلقة منها لإخافة دول الجوار في المنطقة. فقد صنعت الغول الإسرائيلي لأجل محاربة الدول العربية جميعا ولأجل قطع الطريق أمامها كي لا يحدث بينها أي وفاق مهما كان نوعه. وصدّام حسين الذي حارب إيران. فعل ذلك بدعم كامل وشامل من الولايات الأمريكية ومن أوروبا.. فرنسا وبريطانيا وألمانيا. قبل أن يتحول إلى متمرد خطير ومطلوب رأسه حسب الرواية الأمريكية. ربما الشيء الوحيد الذي يبدو كالسحرالذي انقلب على الساحر هو أن التغيير الإسقاطي لم يكن انقلابا بعينه بقدرما كان انفلاتا لوضع بعينه سرعان ما تحول إلى ظلم في أعين الكثيرين.. يقول الكاتب .. إنما الخطأ الكبير هو أن راديكالية التشويش الأمريكية انقلبت إلى الضد. لأن النقطة الرئيسية التي على أساسها فقط يمكن قياس ترمومتر الرهانات الدولية في منطقة الشرق الأوسط هي القضية الفلسطينية. ففي نظر الشعب العربي بالخصوص فإن صدام الذي مارس أبشع الفظاعات ضد شعبه الأعزل. وأدخله في صراعات إقليمية لا نهاية لها. تحول فجأة إلى بطل قومي لأنه تحدى العملاق الأمريكي الذي جاء إليه حاملا مرة أخرى الديمقراطية المبهرة على ظهور المدفعية الثقيلة. تلك الديمقراطية نفسها التي ظلت تدور في الفراغات نفسها طوال أكثر من ثلاثين سنة كان فيها العراقيون يموتون بالمئات لأتفه الأسباب.
ولأن الحصار الدولي كان ديمقراطيا فوق نظام ظل في مكانه بلا حراك.. ؟

أوجه متناقضة

مسألة الوجه الجميل لديمقراطية الشعوب تثير الرغبة في الضحك. يقول الكاتب. لأن الدول التي ترسل جنودها للموت لأجل ديمقراطية شعب كالشعب العراقي كان عليها أن تبقي جنودها في دولهم لفرض الديمقراطية بينهم وعندهم.. فكيف يمكن الحديث عن النموذج المثالي للديمقراطية إذن حين لا تملك أي دولة أو أي شخص. النموذج الحقيقي للديمقراطية وحين تبدو الديمقراطية إما كذبا وإما نفاقا وإما انحلالا قطعيا مباشرا؟ يتساءل الكاتب. ليكن في علم الجميع أننا لن نتراجع عن قرارنا في الدفاع عن الديمقراطية وفي فرضها على العالم أيضا. نحن لا نختار أن يعيش الناس في عتمة الأنظمة الديكتاتورية. لهذا علينا أن نتحرك وعلينا أن نغير الكثير من الأشياء لأجل المصلحة العامة؟
قالها جورج دابليو بوش بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. وكانت تلك الجملة هي المسرح السياسي الأمريكي الوحيد الذي عبره انفجرت أكثرمن حرب في العالم..
صحيح أن الديمقراطية كانت دائماالطرح الانتهازي لفرض نظرية القوة لدى الغرب. ولكن بالمقابل كان الصراع القائم في الشرق الأوسط يعيد إلى الأذهان كل التجاوزات التي حدثت. والتي ارتكبتها إسرائيل.
الدولة التي يعتبرها الغرب أكثر ديمقراطية في الشرق الأوسط؟ إسرائيل التي لأجل تكريس ديمقراطيتها استطاعت أن تقتل أكثر من 5000 شخص منذ بدء الانتفاضة الأولى. وجلهم من الأطفال ومن الشباب الذي لم تكن تتجاوز أعمارهم العشرين سنة. ومن النساء أيضا..أكثر من ذلك. فإن الحرب الديمقراطية الإسرائيلية لم تكن حربا أحادية الاتجاه لأنها استهدفت في النهاية كل الدول العربية. ولأنها أرادت رأس المجتمع المدني في المنطقة.. ما جرى في الشرق الأوسط يعري لوحده كل الانهيارات في القيم وفي المثل. فحين كانت الإدارة الأمريكية تحارب الدول المنغلقة. وحين كانت الحرب دائرة في أفغانستان انتقاما لكرامة الأمريكيين المجروحة كانت آلة القتل الإسرائيلية تقتل الفلسطينيين انتقاما لكرامة الأمريكيين والإسرائيليين وكان المجتمع الدولي يتفرج على الوجه الكامل للديمقراطية العصرية في زمن العولمة والقرية الصغيرة.

الكذبة الكبرى

كتاب الديمقراطية يعد من أهم الكتب الصادرة حديثا عن ديمقراطية المصالح.. فالمعادلة الوحيدة التي أراد الكاتب الوصول إليها هي أن التغيير الذي يأتي من الخارج هو الذي يبني أسس الاحتلال بكل تفاصيله بينما الحرية الحقيقية فهي تعني الالتزام بمبدأ الحياة كما خلقها الله من دون أي زيف في القول أو في الفعل.. لأن عبارة الديمقراطية التي تتكرر يوميا عبر كل وسائل الاتصال المسموعة والمرئية هي الكذبة التي أطلقها الكبار للضحك على الذين لن يستطيعوا أن يكونوا أكثر من ممثلين في مسرحية بدايتها هي نفس النهاية فيها! حسب تعبير الكاتب.